جدلية العلاقة بين السياسة والدين في سوريا

ثائر الحلاق*

ملخص: لم يكن سقوط الخلافة العثمانية حدثًا عاديًّا؛ إذ ترك أثرًا عميقًا في المستويين السياسي والاجتماعي، وقد تبعته سلسلة من الانقلابات العسكرية التي وَلَّدَتْ حالةً غير مستقرة، مهدت لنشوء الأحزاب المناهضة للدين تحت مسمَّى القومية والاشتراكية، كما أَعْلَتْ من نفوذ الطائفية، فحصل تخادم بين الحزبيين والعسكريين، وكان الاتجاه الإسلامي هامشيًّا ومهمّشًا؛ فحضوره في المجتمع مع غيابه عن الجيش قلَّلَ من أثره، وغيّب دوره في السلطة، وتُعَدُّ جماعة الإخوان المسلمين الوحيدة التي شاركت في الحياة السياسية. ويُلاحَظ: أن مرحلة ما قبل انقلاب البعث من أخصب المراحل في تاريخ سوريا، ومع الانقلاب أصبح قرارُ الشعب مرتهنًا للحزب، وغَدَا الحزب سِتَارًا للطائفة، والطائفة أسيرة لحافظ الأسد. في هذه البحث نتناول من خلال منهج تاريخي وصفي المرحلة الممتدة من سقوط الخلافة إلى سقوط الأسد من حيث العلاقة بين الدين والسياسة.

الكلمات المفتاحية: الأحزاب، الجماعات، الانقلاب، الجيش، الطائفية، القومية.

* جامعة كهرمان مرعش استقلال، تركيا

The Dialectic Relationship between Politics and Religion in Syria

THAER ALHALLAK*

ORCID NO: 0009-0008-2206-8678

ABSTRACT: *The fall of the Ottoman Caliphate was not an ordinary event, as it left a profound impact on both the political and social spheres. It was followed by a series of military coups that created an unstable environment, paving the way for the rise of anti-religion political parties under the banners of nationalism and socialism. At the same time, sectarianism gained prominence, leading to a cooperation between political parties and the military. The Islamic movement remained marginal and sidelined, with its limited presence in society and absence from the army reducing its influence and diminishing its role in power. The Muslim Brotherhood was the only group that actively participated in political life. The period before the Ba'ath coup is regarded as one of the most fruitful periods in Syria's history. After the coup, the people's decisions became subordinated to the party, which then became a cover for the sect, and the sect became captive to Hafez al-Assad. This article explores, using a historical and descriptive approach, the period from the fall of the Caliphate to the fall of Assad, particularly the relationship between religion and politics.*

* kahramanmaraş istiklal university Turkiye

Keywords: *political parties, groups, coup, military, sectarianism, nationalism.*

رؤيـــة تركيـــة
2025-(1/14)
95 - 124

Received Date: 06 / 01 / 2025 • Accepted Date: 27 / 02 / 2025

DOI:10.36360/1560-014-001-006

مدخل:

كان سقوط الخلافة زلزالاً عنيفًا، عاشت على إثره مجتمعاتنا الإسلامية حالة اغترابٍ كبيرٍ وضياع؛ لأنه ارتبطت لديها قوة الإسلام ببقاء الخلافة، فاجتهدت النُّخب في تأسيس جمعيات دينية وجماعات؛ لسدِّ الفراغ الذي حصل، فواجهتها تحديات كبيرة وعقبات، أبرزها: شيوع الأحزاب العلمانية والاشتراكية، فضلاً عن الدعوات القومية والوطنية، فغابت قيمُ الإسلام وغُيّبت؛ لأنها لم تجد ناصرًا لها وحاملاً، فالجيش منذ بزوغ نواته الأولى كان يحمل مشروعًا معاديًا للإسلام صاغته الدول الغربية وطُبِّق بأيدٍ طائفية، فكان الإسلاميون همُ الضحيَّة على امتداد القرن الماضي.

جاءت هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على حقبةٍ ممتدةٍ من سقوط الخلافة إلى سقوط الأسد في بُعدها الديني والسياسي، وحاولت، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، أن أُقدِّم صورةً موضوعيةً مصغرةً عن تلك المرحلة ملتزمًا المنهج العلمي الوصفي المقارن؛ متجنبًا النقد مراعاةً لطبيعة الموضوع، فجاءت الخطة في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: من الدولة العثمانية حتى انقلاب البعث:

أولاً: نهاية الدولة العثمانية:

سعتِ الدول الكبرى في أواخر القرن التاسع عشر لبثِّ الوعي القومي ضد العثمانيين، وبمقتضى مراسلات حسين– ماكماهون، وعدت بريطانيا العرب بدولة سورية مستقلة: إن قاتلوا العثمانيين، وفي خفية عنهم كانت فرنسا وبريطانيا تتقاسم بلادهم بحسب اتفاقية سايكس بيكو عام 1916م، وفي جانبٍ آخرَ سارع بعض دعاة الإصلاح والساسة إلى تأسيس الجمعية الخيرية التي تُعَدُّ امتدادًا لحلقة طاهر الجزائري الفكرية، كانت تدعو ظاهرًا إلى العلم وباطنًا إلى إعادة العمل بالدستور العثماني، ومن أهم أعضائها: جمال الدين القاسمي وعبد الرزاق البيطار؛ ثم التحق بهم: رفيق العظم ومحمد كرد علي وغيرهما، وكانت على صلة بجمعية: «تركية الفتاة» التي أطاحت بعدئذٍ بالسلطان عبد الحميد، وبعد انكشاف أمرها تشتت أنصارها وزالت، ثم أُسِّست جمعية النهضة العربية بدمشق عام 1903م، ومن قادتها: محبّ الدين الخطيب وعارف الشهابي؛ بغية النهوض بالأمة، وفي عام 1906 أسّس محبُّ الدين الخطيب فرعًا لها بإستنبول، ثم تركت السياسة تحت ضغط الاتحاديين،[1] ولم يُنادِ أحد بالاستقلال قبل عام 1908م سوى نصارى العرب:

كفرانسيس مراش (ت. 1873م) وشبلي شميل (ت. 1917م)؛ لأنهم كانوا عملاء الغرب أعداء العثمانيين.

أمَّا علماء الدِّين فتمسَّكوا بالدولة العثمانية إلى أنِ اضطُهِد العرب من قبل «تركيا الفتاة» بعد ثورة عام (1908م)؛ فانقسم العلماء بين مؤيد للعثمانيين ومؤمن بالقومية العربية، وفي هذه الحقبة أُزيح العلماء من قطاعَي التربية والتعليم والوظائف الإدارية، ولم يشاركوا سياسيًّا، إلا بعد ازدياد نفوذ الإخوان في عام 1949. ومن أسباب ذلك: ولادة نظام تعليمي جديد على يد المبشرين؛ إذ أنشؤوا الكلية السورية (الجامعة الأمريكية في بيروت)، واليسوعية (جامعة القديس يوسف)، وأُسِّست مدارس خاصة معظمها للأقليات (210 لهم، مقابل 77 للمسلمين في عام 1945)؛[2] ثم اضطر بعض رجال الدين لتأسيس مدارس إسلامية للوقوف في وجه التأثيرات التغريبية (83)، ومن علماء هذه المرحلة: الشيخ أبو الهدى الصيادي مؤسّس حركة الجامعة الإسلامية، وكان له حظوة عند السلطان عبد الحميد؛ فقلده مشيخة المشايخ بدار الخلافة. والكواكبي (ت. 1902م) الذي ربط تأخر المسلمين بتدهور النظم السياسية وغياب الحريات، والحلّ في دولة شرعية يحكمها خليفةٌ قرشي له سلطة روحية على الناس، لكن أفكاره اضطربت بعدئذٍ فنادى بفصل الدين عن الدولة، فنقده صديقه رشيد رضا (ت. 1935م) الذي استقر بمصر بصحبة محمد عبده حتى وفاته (ت. 1905م)؛ داعيًا لإصلاح أمور المسلمين؛ معلّلًا تخلفهم بتغليب القومية على الدين، واعترف بالخلافة كأمر واقع، وبعد انقلاب الاتحاديين (1908م) شجع العرب على استعادة مجدهم. وعبد القادر المغربي (ت. 1956م) الذي تأثر بالأفغاني وعبده، فربط الإصلاحَ بفهم الدين وإخلاص المتدين، وتصحيح المناهج التربوية والتعليمية، فلا بُدَّ لذلك من الخلافة العثمانية. ورفيق العظم الدمشقي (ت. 1925م) الذي سكن مصر وله كتاب «الجامعة العثمانية والعصبية التركية»، وكان داعيًا إلى الجامعة الإسلامية مؤمنًا بوحدة شعوب الدولة العثمانية وأراضيها. وشكيب أرسلان اللبناني (ت. 1946م) الذي أسهم في ترسيخ وحدة العالم الإسلامي تحت مظلة العثمانيين، ونَعَتَ الدعوة لخلافة عربية بأنها دسيسة إنكليزية.[3]

ثانيًا: مرحلة ما بعد الانقلاب العثماني 1908:

فرح الناس بالدستور العثماني عام 1908، ولكن بعد سيطرة الاتحاديين على الحكم، والدعوة إلى القومية الطورانية وخلع السلطان عبد الحميد عام 1909م- برزت عدة تيارات: كجمعية الإخاء العربي، والمنتدى الأدبي (1909م) وهو ضد الحكم التركي،

والجمعية القحطانية (أُسِّست بإستنبول عام 1909م) التي دعت إلى إيجاد كيان عربي مستقل، وجمعية العهد عام 1913م التي جعلت هدفها استقلال العرب مع بقائهم مع العثمانيين، وأكبرها الجمعية العربية الفتاة التي أُسِّست عام 1921م للنهوض بالأمة مع عدم الانفصال عن العثمانيين، وبعد الحرب العالمية الأولى سعت إلى تحرير البلاد، ويُلاحَظ غياب الإسلام غيابًا تامًّا عن أذهان دعاتها، وحزب اللامركزية الإدارية العثمانية الذي ضم إسلاميين: كرشيد رضا ومحب الدين وعلمانيين ونصارى عام 1912م. وقد بدأ عهد الإمارة العربية المستقلة في سوريا في عام 1918م حيث أصبح فيصل بن الحسين ملكًا عليها، ولمّا كانت التنازلات لا تأتي دفعة واحدة: فقد قدم الحسين تنازلات كثيرة كتخليه عن فلسطين لليهود، وعن المغرب العربي، مكتفيًا بمبايعته ملكًا على سوريا عام 1920م، ثم أعلن فصل الدين عن الدولة تحت شعار الدين لله والوطن للجميع، وأن الإسلام عقيدةٌ في القلب، وشعارٌ في المسجد، وسلوكٌ شخصي في الحياة، واستبدل ساطع الحصري القومية بالإسلام في مناهج التعليم؛ فتبناها حزب البعث لتبقى آثارها إلى يومنا هذا.

وفي عام 1920 تشكلت حكومة من جميع الأحزاب لمواجهة الضغوط الفرنسية على الملك فيصل، وبدأت الحكومة بتنفيذ مواد الإنذار: كقبول الانتداب، وتسريح الجيش السوري المدرب، ومع ذلك زحفت القوات الفرنسية لاحتلال دمشق. حاول الملك إعلان الجهاد لكن فات الوقت بعد حَلِّ الجيش، فدخلت فرنسا عام 1920م على جثث ثُلّةٍ من المتطوعين يقودهم يوسف العظمة وزير الحربية، ووقف قائدهم على ضريح صلاح الدين معلنًا انتصار الصليب على الهلال، ثم بعدئذٍ أصدر غوابيه قائد الحملة الفرنسية كتابًا جَرَّدَ فيه الملك من كل سلطة؛ فطُويت أولى صفحات القومية البديلة عن الإسلام، وكانت أولى خطوات الاحتلال تمزيق سوريا إلى دويلات طائفية: مسيحية وعلوية ودرزية والبدو،[4] وعقب ذلك قامت الثورة السورية الكبرى (1925–1927)، وكان الشيخ بدر الدين الحسني ممَّن أوقد شرارتها، بجولاته في الولايات،[5] وتجاهل الوطنيون ذلك لينسبوا الفضل لهم فحسب، كما أن الشيخ طاهر الجزائري حمى النصارى من عنف جماهير المسلمين؛ لأن بعضهم كان يعمل لمصلحة النصارى؛ بل أُسِّست جمعية القمصان البيض –وهي كاثوليكية– لدعم الانتداب الفرنسي.

وفي عام 1924م أُسِّس الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا، وفي العام ذاته طلب المندوب الفرنسي من الشيخ تاج الدين الحسني تشكيل حكومة جديدة، فقبل بشرط

وضع برنامج للاستقلال[6] فرفض طلبه، ورفض الوطنيون التعامل معه، فأسقطوه، فحكم العسكر.

> كانت أولى خطوات الاحتلال الفرنسي تمزيق سوريا إلى دويلات طائفية: مسيحية وعلوية ودرزية والبدو

وفي عام 1928م كُلِّفَ الشيخ تاج الدين بتشكيل وزارة تُشرف على الانتخابات، على أن يعقبها معاهدة مع فرنسا، وجرت الانتخابات وكان التاج يتزعم القائمة، وفي جلسات إقرار الدستور طلب بعض النصارى كنقولا جانجي أن تكون الدولة (لا دينية) واعترضوا على كون رئيس الجمهورية مسلمًا، فأقروا الإسلام شعيرةً للمسلم لا شريعةً للعامة، فعطلت فرنسا الدستور، ثم عقدت بعض الأحزاب معاهدةً مع فرنسا منحت الفرنسيين نفوذًا كبيرًا، كما سكتت عن لواء إسكندرون وقانون الطوائف، فعارضها الإسلاميون؛ لأنه كما قال محب الدين الخطيب بهذه النصوص احتفظت فرنسا بحق احتلال أي بقعة شاءت في أي ساعة أرادت مدة ربع قرن، وهاجمها مصطفى السباعي بوصفها وزَّعت البلدَ بين الأقليات وسرقت أوقافه، وأن نظام الطوائف يفتح باب الردة ويجيز للمسلمة الزواج بكافر، كما أن فرنسا أسكنت الأقليات في أخصب المناطق.

وفي عام 1932 أسس أنطوان سعادة الحزب القومي السوري الذي جعل هدفه الرئيس بناء سوريا موحدة، وتغليب القومية على الدين، وعمومًا انفردت الكتلة الوطنية بحكم سوريا من عام 1936–1939م.[7]

وفي عام 1930م أُسِّست جمعية الهداية الإسلامية، وأصدرت الجمعية مجلة خاصة بها، وبعد عامين أُسِّست جمعية التمدن الإسلامي التي عُرِفت بفضل المجلة التي تحمل اسمها، ومن شهرة القائمين عليها من النخب، وقد اهتمت بالتعليم خاصة، وكانت قريبة فكريًّا من جماعة الإخوان.[8]

وفي (1937م) بعد رجوع محمد كامل القصّاب من منفاه أَسس جمعيَّة العلماء، وكان أبرز أهدافها: الِاهتمام بالمسلمين، ورفع مستوى العلماء والمتعلِّمين، وعدم التَّدخُّل في السِّياسة. ومن إنجازاتها: تأسيس المعهد العلمي بدمشق الذي جمع بين الثَّقافتين الدِّينيَّة والعصريَّة، كما نظَّمت أوَّل مؤتمر للعلماء بدمشق حضره ثُلّةٌ من علماء البلاد العربية في عام 1938م،[9] وإلغاء قانون الطَّوائف والوقوف بحَزْم ضد قانون تصفية أوقاف السَّلاطين والأمراء والذُّرِّيَّة.[10] وبموت القصاب عام 1954م ماتت الجمعية. ويُلاحَظ أن العلماء وأبناءهم كانوا من الحرفيين أو بينهما مصاهرةٌ، وهذا يفسر قوة العلاقة بين الطرفين.[11]

تَلَت ذلك أحداث كثيرة تمثلت بتشكيل حكومات واستقالتها، إلى أن أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا عام 1939م، وضغطت الأولى على الثانية لمنح سوريا الاستقلال، وبعد انهيار قوات فرنسا في سوريا ولبنان: عاد تاج الدين الحسني من منفاه إلى دمشق؛ فاجتمع به الجنرال ديغول، وعيّنه رئيسًا للجمهورية، وشُكِّلت حكومة برئاسة حسن الحكيم، وفي هذا الوقت صدر قرار فرنسي عام 1942م يقضي بإلغاء تجزئة الأراضي السورية؛ فعادت منطقة العلويين والدروز إلى سوريا الأم، ورفض الشيخ تاج المعاهدات التي طلبتها فرنسا؛ تخوفًا من بقاء سوريا رهينةً لها إلى أن مات مسمومًا عام 1943م، من دون معرفة القاتل.[12] وبعد أن اعترفت فرنسا باستقلال سوريا في 27 أيلول 1941 أعلن الجنرال كاترو في عام 1943 إعادة الدستور الذي كان مشبعًا بالفكر القومي على حساب الإسلام، وإجراء الانتخابات النيابية، إلى أن انتُخِب شكري القوتلي رئيسًا، حتى انقلاب حسني الزعيم عام 1949م. ويُلاحَظ تحالف الجمعية الغراء الإسلامية مع القوتلي، ثم بعد عام حصل تصادم بسبب اشتراك نساء مسلمات في حفل خيري راقصٍ نظمته جمعية نقطة الحليب التي تشرف عليها نساء الطبقة الراقية، فنشطت احتجاجاتٌ كبيرة في حي الميدان الدمشقي، ونُفِي الشيخ محمد الأشمر إلى تدمر؛ لاتهامه بالتحريض.[13]

ثالثًا: بعد الاستقلال:

قبل نشوء الأحزاب وُجِد في عهد الانتداب نظام الزعامات الذي يُعَدّ امتدادًا لنظام الأعيان (الإقطاع) الذي كان سائدًا في العهد العثماني؛ فالزعيم ينتمي إلى أسرة كبيرة، وله نفوذ على أفرادها كافة، وهو يدير شؤونهم؛ فالدولة لا تستطيع أن تقبض على مجرم إلا بموافقتهم، فالعلاقة كانت على هذا النحو (دولة- زعيم- متبوعية)، وأدّى هؤلاء الزعماء دورًا في تأسيس الأحزاب، وشغل المناصب، وهم السبب في تراجع الحياة الديمقراطية، فبين عامَي 1943-1947م تشكلت ثماني حكومات، فهم يرفضون كل إصلاح يعارض مصالحهم، وغدا البرلمان وسيلة إثراء.[14] وبعد انتخابات عام 1947 -وهي أول انتخابات بعد الاستقلال- وُجِدت ضرورة لتأسيس الأحزاب: كحزب الشعب الذي كان ديمقراطيًّا، والحزب الاشتراكي الذي كان يجنح للعنف في سلوكه السياسي، وساند الفلاح وعادى الإقطاع، وحزب البعث حيث كان يُبشّر بمبادئه في صفوف النخبة بدءًا من طلاب الثانويات، حتى وصل صلاح بيطار وعفلق إلى قلب الطلاب.[15] وكان الحزب الشيوعي بقيادة خالد بكداش تقليديًّا يرتبط بالحزب الشيوعي السوفياتي. أما علماء الدين فكان

لهم مركزهم الاجتماعي، ولكن في السياسة لم يصمدوا أمام خصومهمُ الاشتراكيين والشيوعيين.[16]

تسلَّم السلطة حكم ديمقراطي، وحقّق منجزات، منها: تحديث برامج التعليم وبعض القوانين بمساعدة عبد الرزاق السنهوري، كقانون العمل عام 1946م، وتحديث القوات المسلحة، ثم بدأت الانقلابات العسكرية الثلاثة، وهي في حقيقتها صراع بين السُّنة والسُّنة، وكانت مأساة فلسطين هي المَشجب الذي تُعلَّق عليه الانقلابات؛[17] ففي الانقلاب الأول لحسني الزعيم أُلغِيت قوانين الشريعة ووُضِعت القوانين الفرنسية مكانها، وهو ما لم تجرؤ على فعله فرنسا، وأعلن توحيد الملابس بغية إلغاء الخمار، وسخط على اللباس العربي التقليدي، وبرزت النساء أكثر تحررًا، ونشطت النوادي الليلية، وألغى الوقف الخيري،[18] وقد شجب الإخوان المسلمون إصلاحاته العلمانية بعد أن كانوا معه، وانقلب الحناوي عليه بمساعدة الضباط الدروز الذين وعدهم بمناصب ثم تنكّر لهم، وكانت أهم إنجازاته: العودة إلى الحكم الديمقراطي، وإبعاد الجيش عنِ السياسة، ودعوة هاشم الأتاسي لتشكيل حكومة نال فيها حزب الشعب –وهو كحزب البَعث في علمانيته– خيرة

المناصب، فأُسنِدت لعفلق وزارة التربية؛ اعترافًا بتأثيره في الطلاب، فأرسل طلائع البعث في بعثات خارجية، ومكّن البعثيين منَ المواقع المهمة، ولا تزال آثاره في المناهج حتى الآن.19 وفي عهد الانقلاب الثالث برزتِ الجبهة الاشتراكية الإسلامية بقيادة مصطفى السباعي الذي حاول إعادة الشريعة إلى الحياة، غير أنّ الأكثرية كانت لحزب الشعب الذي أمسك بالعصا منَ المنتصف؛ فلم يرفض الإسلام ولكنه أبعده عنِ التشريع، باستثناء مادّتين: دين الدولة الإسلام، والفقه الإسلامي مصدر رئيس من مصادر التّشريع، لكن العلمانيين في سوريا نصبوا حربًا شعواء عليها؛ فقد كانت قضية إبعاد الإسلام عنِ الساحة السياسية أهم القضايا التي تشغل الحوراني؛ لذلك استقال منَ الوزارة. وهكذا فالعلمانية استُخدِمت لتكرّس الطائفية، من خلال مبدئَي الحرية والمساواة، فسلبتِ الأكثرية حقّها بدافع الخوف منها، ومن هنا فهي علمانية كيدَية لا حيادية، يستخدمها المستبدّ في تحقيق غاياته.[20]

ولم يكن واعيًا للخطر الطائفي إلّا الشيشكلي؛ لهذا كانت أعنف معاركه معهم،[21] ووجد في العروبة ستارًا جيدًا للتحرك في ظلّه، فهي لا تعادي الإسلام، ومخالفة للقومية العربية بوصفها، عند أنصارها، بديلاً عنِ الدين. وقد حاول السباعي إقناع الشيشكلي إعادة الحياة البرلمانية، والإفراج عن الدواليبي؛ فاعتقله أربعة أشهر، ثم حَلَّ في عام 1952م جماعة الإخوان، ووسع من صلاحيات الحكومة لتشمل المدارس الخاصة، ومنع فتح المدارس التبشيرية، وراقب التبرعات الخارجية وجعلها لأغراض تربوية، وحظر على الشباب ممارسة أي نشاط سياسي، وأمر مدرسي رجال الدين بارتداء زي موحد، وحرم عليهمُ ارتياد المقاهي وأماكن اللهو، واعتقل مَن ينتهك حرمة رمضان، وأخضع الأجانب لرقابة شديدة؛ فلم يسمح بتملك أي عقار، وأخضع العلاقات مع الدول الأجنبية لفحص دقيق، ومنع اتصال الجامعة السورية والمجمع بأي مؤسسة أجنبية، وحرم دخول سوريا على الفاسقين والمجرمين وأي شخص يخل بالأمن، وللقضاء على أي معارضة أمرت الحكومة عام 1952م بحظر الأحزاب السياسية كافة، وأقام خلال نصف سنة دكتاتورية مركزية صارمة، وأسكت منتقديه بطرق بوليسية،[22] ثم أسس ما سمّاه: حركة التحرير العربي بوصفها بديلاً عنِ الأحزاب؛ لتكون متنفسًا للشعب، لكن الأمر آل إلى دكتاتورية مطلقة.

كان الشيشكلي ذا نظرة بعيدة؛ إذ أدرك خطر الدروز فهمُ الذين جاؤوا بالحناوي، وهمُ الذين أطاحوا به ممهّدين الطريق له، أيِ: الشيشكلي ذاته. فخشي منهم إنِ اختلف معهم،

وله تشبيه يقول: «أعدائي يشبهون الأفعى، رأسها جبل الدروز، ومعدتها حمص، وذنَبها حلب، فإذا سحقت الرأس ماتتِ الأفعى». وعندما شعر بقرائن تمرّد أرسل جيشًا إلى الجبل؛ فهرب شيوخ الدروز إلى الأردن عام 1954م،[23] وقبل تمكّن الشيشكلي منَ الحكم وصل الحوراني إلى وزارة الدفاع، ثمّ قلّص من صلاحيته، فافترقا، فوحَّد الحوراني حزبه مع حزب عفلق باسم حزب البعث العربي الاشتراكي، وبسبب تسامح الشيشكلي مع خصومه حصل تمردٌ عليه من قبل الحزبيين في حلب، ثمّ لحقت بها حمص؛ فقرّر الاستقالة بسبب خيانة الدرزي: شوكت شقير رئيس الأركان، حيث أوهمه أنّ الجيش غدا ضدّه، فلا بُدَّ مِن حقن الدماء. سقط الشيشكلي السُّنّي الحموي على يد السنّيّين الحمويين البعثيين: مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت، وبخيانة المقربين منه: عبد الحميد سراج والأتاسي،[24] فتشكلتِ الوزارة الأولى برئاسة فارس الخوري، ثم سقطت بعد ثلاثة أشهر عام 1955م؛ لموقفها من حلف بغداد، وعندما أوشك الأتاسي على التقاعد بدأ الصراع على الرئاسة بين اليمين الذي يمثله شكري القوتلي، واليسار الذي يتزعمه خالد العظم. نجح القوتلي رئيسًا للبلاد عام 1955، وشكل سعيد الغزي وزارة ائتلافية، وبعد أن تسلّم اللواء شوكت شقير وزارة الدفاع بدأ الاتحاد السوفييتي يحتل الساحة،[25] ومع أن الحزب الشيوعي كان ممنوعًا؛ فقد كانت هناك أربع صحف دمشقية تعكس أفكاره، وضعف حزب البعث، وحصلت خلافات بين أعضائه، وفي الوقت ذاته برزت مشكلة عبد الناصر مع الإخوان الذين لمع نجمهم في بواكير الخمسينيات؛ إذ حاربوا الإنكليز في قناة السويس، فحلت الثورة المصرية جميع الأحزاب إلا الإخوان، ثم انقلب عليهم عبد الناصر واتّهمهم بمحاولة قتله، وعمالتهم للإنكليز، واستفاد من تقاربه منَ الشيوعية، فاضطر الإسلاميون في سوريا بقيادة السباعي للتعاون مع المعسكر الشرقي، وكان اليسار العربي يدرك أن أكبر أعدائه همُ الإخوان لكنه لم يخشَهم؛ لعدم وجود جيش لهم،[26] وكانت تركيبة الجيش لمصلحة البعثيين، فعدد ضباطهم نحو 60 ضابطًا، أبرزهم: محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد، وعدد ضباط الشيوعيين نحو ثلاثين ضابطًا؛[27] فرجحت كفة اليسار العلماني وخسر حزب الشعب، وكان من ممثليه: الدواليبي ومصطفى الزرقا، وحليفه التيار الإسلامي، وحمل الثاني أخطاء الأول؛ فاتُّهِم بالتواطؤ مع النظام الهاشمي بالعراق، وعمومًا بقي الصراع بين رياض المالكي ويدعمه بكداش وصلاح بيطار وعفلق وخالد العظم وبين السباعي الذي يؤيّده علماء دمشق باستثناء كفتارو الذي شَقَّ صف العلماء، فكانتِ المعركة كما يراها الناس بين إيمان وكفر، وفاز المالكي على السباعي بأغلبية ضئيلة، وكانت تلك الخسارة أكبر نكسة للإسلاميين؛ فقد علا صوت خصمهمُ

المبشر بسطوع شمس الاشتراكية، وفي هذا التوقيت كانتِ الأحزاب كافّة تؤيّد الوحدة مع مصر مع اختلاف غايتها من ذلك التأييد، فالإسلاميّون خافوا منِ انتشار الشيوعيّة الحبلى بالإلحاد، وأيدها حزب البعث؛ لأن عبد الناصر أيد أفكارهم وحارب أعداءهم الإخوان، وحزب الشعب للخلاص من سيطرة الشيوعيين والبعثيين والجيش، فوجدوا في الوحدة حلًّا لتلك النزاعات المتكررة.

تجرأ التيّار الملحد، فشجّع على الفجور، وغدا التمسك بالإسلام مثيرًا للشفقة والاستهزاء؛ فالرجعية هي الدين، والتقدّمية التحرّر منه، وساعتئذٍ سافر 14 ضابطًا برئاسة عفيف البزري إلى القاهرة من أجل الاتحاد مع مصر، وقالوا لعبد الناصر بذلٍّ: افعل بنا ما تريد، وأنقذنا فقط منَ السياسيين، ومن أنفسنا؛[28] فأعلن عبد الناصر الوحدة، فعزل الجيش عنِ السياسة، وحَلَّ الأحزاب، وطالب بمنحه تفويضًا كاملًا، فهمَّش الجميع،[29] وهذا النهج الوحدوي لا يُرضي البعثيّين، ولا الشيوعيّين الذين أرادوها فيدرالية لا اندماجًا كاملًا، وهكذا بين عامي 54 و58 كان الصراع سنّيًّا بحتًا. ترك النصيرية الساحة للسُّنيين كي يصفّي بعضهم بعضًا، وغدت سوريا محافظةً تابعةً لمصر تُدَار منها، وقام عبد الناصر بتصفية خصومه داخل الجيش: الشيوعيين فالبعثيين، وأرسل بعضهم في بعثات خارجية، أو إلى الإقليم الجنوبي (مصر) كي يقل تأثيرهم، وفي عام 1959م أرسل المشير عبد الحكيم عامر حاكمًا على سوريا بصلاحيات مطلقة، وبعد إقصاء عبد الناصر للبعثيين جعل القومية -وهو أبوها- صنمًا بديلًا عنِ الإسلام، وظهر ما يُسمّى بالتدين الفردي؛ فالمرء قد يكون في الوقت ذاته متدينًا وفاجرًا، وظهر ذلك في حال الضباط السُّنّة؛ فقد كان انتماؤهم للإسلام شكليًّا، فعندما حُفِرت بئر ارتوازية في حوران، قال الوزير السوري السُّنّي: طعمة العود الله قال: «لقد أصبحنا في غِنى عنِ السماء». وحاول عبد الناصر أن يُحدث شرخًا بين الإخوان المسلمين في سوريا وبين العلماء فأرسل مع نائب رئيس رابطة العلماء الشيخ: مكي الكتّاني أنه سوف يطبق الإسلام، ويريد منهم كتابة دستور إسلامي؛ ففرح العلماء وحدّدوا موعدًا للسفر إلى القاهرة، فأُجِّل ثم أُجِّل ثم أُلْغِي، وحتّى لا يُحسَب المسلمون على الإخوان كانتِ الفتاة لا تستر شعرها، والشاب لا يطلق لحيته.

ويُلاحَظ أنه كان لمسجد كلية الشريعة بدمشق دور كبير في محاربة الفساد وبناء الوعي، ولاسيّما خطيبه عصام العطار،[30] وألقى الدكتور مصطفى السباعي على مدرج جامعة دمشق محاضرةً بعنوان: «اشتراكية الإسلام» فتبنتها دولة الوحدة، واستغلتها

لتسويغ قرارات التأميم التي أصدرتها، واحتج السباعي بشدة مبينًا أن اشتراكية الإسلام تختلف جدًّا عنِ الناصرية.[31]

ولم تعش الوحدة طويلاً، فكان الانفصال عام 1961م بقيادة ضابط سُنّي دمشقي: عبد الكريم نحلاوي، وأيدته الأحزاب كافّةً إلا الإخوان برئاسة العطار.[32] وهكذا فالذين وقّعوا على الوحدة وقعّوا على الانفصال أيضًا؛ إذ حركتهمُ المصالح لا المبادئ، وجسد موقف العلماء منَ الانفصال كلامُ علي الطنطاوي لجمال عبد الناصر، وممّا قاله: «حاولنا مقابلتك وسعينا وسلكنا كل سبيل فما استطعنا، وكنا نراك في الرائي تمضي ليلة كاملة من ليالي رمضان ترى الراقصات العاريات وتسمع المغنّيات الفاتنات، فهلِ اتّسع وقتك لهذا وضاق عن لقاء العلماء».[33] وقام عبد الكريم النحلاوي بتسريح أكثر منَ 120 ضابطًا حزبيًّا لتنظيف الجيش منَ الحزبية، ثمّ توالتِ الاضطرابات والإقصاءات، وكانت الضحيّة ضباط السنة، وهنا بدأ يتصاعد نجم النّصيريّة.

وأما عنِ التيّار الإسلامي زمن الانفصال، فقد ظهر بعد تشكيل حكومة بشير العظمة التي جاءت لتحقيق الوحدة، لكن عبد الناصر أبى إلّا أن تُسَلّم البلد له، وأعلن بشير العظمة بعدم السماح بتأسيس حزب على أساس ديني، فهدّد عصام العطار على منبر جامعة دمشق بإسقاط الحكومة، فتراجع، ثمّ سقطتِ الوزارة، وجاءت وزارة خالد العظم الثالثة في عهد الانفصال؛ فشارك فيها الإسلاميون بثلاثة وزراء، والحوراني بثلاثة، وخالد العظم بثلاثة، لكنها كانتِ انتقالية تُهيّئ لانتخابات جديدة، وكان للعطار حضور كبير في دمشق وغيرها، إلى أن جاءت ثورة الثامن من آذار، فاغتالت حرية الشعب، ثمّ اغتالتِ الشعب، كان للإسلاميين حضور، ولكن لم يكن لهم جيش ولا ضباط فيه، وكانت هذه ثغرة كبيرة، وقد عرض بعض الضباط على العطار المشاركة بانقلاب عسكري فرفض الفكرة مؤكدًا أنّ الحركة التي تأتي بانقلاب تذهب بانقلاب، وبذلك فوتتِ الحركة الإسلامية فرصةً تاريخيةً للوصول إلى الحكم؛ لأنّ العلويّين الذين تسلّموا الحكم بعدئذٍ لم يكونوا أحسن حظًّا منَ الإسلاميّين.[34]

وجد النُّصيريون في فرنسا فردوسهمُ المفقود، فالمجلس التمثيلي العلوي كان ضدّ وحدة سوريا، وقد أصدر الجنرال ويغان قرارًا باستقلال دولة العلويين (1925–1936) وقدّموا وثيقةً –منهم سليمان مرشد ووالد حافظ الأسد– أعلنوا فيها مفارقتهمُ المسلمين في الدين والعادات والتقاليد، وطالبوا بدولة تحت الانتداب الفرنسي، أو سيكون مصيرهمُ الفناء. فلمّا لم تتحقّق مطالبهم أصدروا قرارًا مضادًّا في تموز 1936م بعد أقلّ

من شهر من بيانهمُ السابق: أنهم مسلمون علويون، وأن مَنْ لَا يعتنق الشهادتين أو من ينكر القرآن أو النبي فليس علويًّا.[35] ومن أكبر المفاجآت ما أعلنه صالح العلي عام 1936م أنهم سيحكمون سوريا قريبًا، وفق ما يقرره كتاب الجفر.[36]

المطلب الثّاني: مِنَ الاستقلال إلى حكم البعث فالطّائفة:

كان النّصيريّة يعملون بصمت، وبدأ تغوّلهم في القوى الجوية، ففي عام 1960م عقد مشايخ النصيرية اجتماعًا في القرداحة حضره كبار ضباطهم حول انخراط الشباب النصيريّين في صفوف الحزب، والتخطيط لدولة نُصيرية عاصمتها حمص، والدخول باسم البعث في مؤسسات الجيش، وهجرة النصيرية من جبالهم إلى المدن الكبرى،[37] ثم وزّعوا الأدوار بين حزبَي: القومي السوري، والبعث الاشتراكي، وكان عدنان المالكي أكبر عقباتهم؛ فقتله النصيرية للوصول إلى الجيش، واُكتشِف بعدئذٍ أن 65% من الجيش نصيرية، أما السّنة فتركوه؛ لأنهم يرونه خدمةً لفرنسا، كما أنهم كانوا يحتقرون الجندية؛ لأنها كانت مأوى للفقراء، والمغمورين والكسالى والفاشلين، ولأهل القرى بغية التهرب من وضعهمُ البائس، فقيمة النصيري يستمدها منَ الجيش؛ ولأن قاتل المالكي كان عضوًا بالقومي السوري، فوجد البعثيون فرصة لتصفية ضباط الحزب بتهمة التخابر مع حكومة العراق حليفة أمريكا،[38] ووقف الشيوعيون معهم؛ لأن الحزب القومي كان ميّالًا للغرب؛ فالقضاء عليه سيمهد الطريق نحو المعسكر الاشتراكي، فَحُلَّ الحزب، وأُغلِقت مقارّه، وسُرِّح ضباطه وموظّفوه.

ولمَّا ألفى النُّصيريون تلاشي الحزب القومي انتقلوا إلى البعث، وشكّلوا سريةً أشبه بالمحفل الماسوني، وكان عقلهمُ المدبر هو المقدم محمد عمران (تولد 1922) غيرَ أنه كان مفكرًا أقرب منه سياسيًّا، وكان صلاح جديد عكسه، فقد مارس باطنية لتدمير الحزب باسم الحزب؛ فأقصى خصومه، وسعى النُّصيريون (عمران، جديد، الأسد) لضم الدروز والإسماعيليين إلى اللجنة العسكرية السرّية، كالضابطين الإسماعيليين: أحمد المير وعبد الكريم الجندي.[39] وبعد الاستيلاء على السلطة عام 1963م توسعتِ اللجنة العسكرية، ولكن بقيت قيادتها للعلويين.[40]

وهكذا نجح انقلاب 8 آذار؛ لا بعبقرية الضباط النصيرية، ولكن بتفكك الجيش وإقصاء الإسلاميين، وهذا الانقلاب غيَّر هوية سوريا، وتتحمل الحركة الإسلامية المسؤولية؛ لغفلتها عنِ الجيش وزهدها فيه، وكان بوسعها، إن ضُيِّقَ عليها، أن تدفع بشبابها دون إفصاح، كما أن الإسلاميين خافوا منَ الانحراف السلوكي والفكري في

الجيش، وكانت من جانب آخرَ تؤمن بالديمقراطية. وبعد خمسة أشهر منَ الانقلاب سيطر النُّصيريون على الحزب والجيش والحكومة؛ فركّزوا على تربية المواطن تربيةً اشتراكيةً تعتقه من أطر التقاليد الاجتماعية الموروثة، وفي هذا السياق قدّم حافظ الأسد النُّصيري: زكي الأرسوزي بديلاً عن صنم الحزب المحترق ميشيل عفلق، جرى ذلك في خِلْسةٍ منَ الزمن وغفلةٍ منَ الأمة، وسعى النصيريون إلى تجنّب استفزاز المسلمين؛ فتركوا لهم صحيفةَ «اللواء» الإخوانية، وبقي العطار خطيب جامع جامعة دمشق، بينما أغلقت نشاطات الأحزاب وصودرت ممتلكاتها. إنهم أرادوا تطهير الجيش من أي إسلامي، ثم يتفرغون لاجتثاث الإخوان الذين زعموا أن القوة السياسية كافية لحمايتهم.[41]

غادر عصام العطار سوريا حاجًّا، وكان آخر عهده بها؛ إذ حُظِر من دخولها، فتخلص البعث من أكبر خصومه، وتبع ذلك منع صدور جريدة «اللواء»، وكانت حماة بالنسبة لهم أكبر خصومهم، فهي معقل الإسلاميين، وثأرهم معها قديمٌ؛ إذ جرت عادتهم بيع بناتهم لأهل حماة أو تأجيرهن للعمل مقابل سِلْفةٍ مالية، فحاول النصيريون تجنب الصدام الطائفي؛ ليكون الصدام بعثيًّا سنّيًّا، فجعلوا أمين حافظ الواجهة السنّيّة المعدة لذلك، ففي عهده سرح ضباط السّنة باسم الانفصاليين والناصريين، وكان الحرس القومي -الذي شكله الثلاثي النصيري- مأوى لكل الفجار والملحدين، وبتسلّحهم أدرك شباب الحركة أنهم مستهدفون، وكانت الشرارة الأولى عندما كتب طالب في «ثانوية عثمان الحوراني» بحماة (ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ)، وكتب تحتها ميشيل عفلق؛ فضجت الإدارة الحزبية في المدرسة، وسُجِن الطالب، ونقلت وزارة التربية اثنين من مدرّسي الديانة إلى دير الزور وحلب؛ فأضرب الطلاب، وبدأ مروان حديد بتعبئة القوة الشعبية ضد النظام، فهدّد المحافظ: عبد الحليم خدام بتدمير المدينة إذا استمر الإضراب، فقاطعه أحد علماء حماة قائلاً: «لا تُحَلّ الأمور بالتهديد».[42] ودعا مروان حديد إلى الاعتصام في المسجد؛ فاجتمع حوله الناس، ورفض خدام مقابلة الوفد مبيتًا الثأر؛ إذِ اقتحمت قوات الحرس القومي «زاوية الشيخ مروان حديد»، فانسحب الشيخ مروان إلى مسجد السلطان، واعتصم فيه، وكانتِ السلطة تستدرجهم للبطش بهم، وفي اليوم التالي وصل الرئيس: أمين حافظ إلى حماة مع زحف أرتال الجيش إليها، ثم أصدرتِ الدولة قرارًا بإعدام أربعة عشر رجلاً ومصادرة ممتلكاتهم، وساعتئذٍ صعّد الاشتراكيون الموقف ليكون الإسلاميون وقود المعركة، وبدأ الاقتحام بتدمير مسجد السلطان، فاعتُقِل من فيه، وكان بينهم مروان حديد، وقتلوا 70 شهيدًا، ويومئذٍ أصدر محمد الحامد بيانًا يدعو إلى عدم المواجهة، فزعم الاشتراكيون أن البيان مكذوب، فلازم الشيخ بيته إلى أن بدأ تدمير المدينة، فسارع للنزول

عند رغبة السلطة بإعلان الاستسلام، فطلب منَ الناس رفع الرايات البيضاء على ظهور المنازل، واقتيد مروان ومن معه إلى أمين الحافظ، فوجّه له كلامًا قاسيًا فردَّ عليه قائلاً: «يا أمين، اجعل المعركة بيننا شريفة». وكان قائد الحملة العسكرية التي جاءت لتدمير حماة: عزت جديد حاضرًا، فضرب مروان حديد فضربه مروان بيديه المكبلتين بالحديد، وأرسلوا الموقفين إلى حمص، ومنها إلى تدمر، وثبت مروان في مواجهة القتلة، فكان يردّ على رئيس المحكمة الصاع صاعين، فهدّدوه بالإعدام، فقال مبتسمًا: «لو أعلم أنك تملك حياتي وموتي لعبدتك من دون الله». ثم أُصدِرت أحكام بإعدام 28 شخصًا، ومصادرة أملاكهم، مع أحكام أخرى.[43] وأراد النصيرية قتل مروان ورفاقه، لكن أمين الحافظ رفض تسليمهم، ونقلهم إلى تدمر، ثم عفا عنهم بعد شفاعة: محمد الحامد.

وكان في دمشق ثلاث مجموعات إسلامية غير الإخوان، أولها: جماعة المرابط برئاسة أمين المصري، ومن أعضائها: عبد الرحمن الباني وجودت سعيد، وهي قريبة فكريًّا منَ الإخوان وتنسق معهم. وجماعة كتائب محمد التي تدعو إلى العمل المسلح، ومن قادتها: عدنان المصري وعبد الرحيم الطباع. ومجموعة العلماء وعلى رأسهم: حسن حبنكة، وعبد الكريم الرفاعي، وكانوا مستائين منَ التوجه نحو الشيوعية، واتُّخِذ قرار من الإسلاميين بدعم حماة، ولكن القرار توقّف عندما سقطت، ووضعتِ النصيرية خطة لإرهاب دمشق بواسطة عملاء لها في صفوف العلماء بافتعال أحداث، أو وضع دعوات لدروس لا يعرفون من أعلن عنها، كالدعوة إلى اجتماع العلماء في الأموي، فحضر الناس وبدأ عراك في المسجد بينهم وبين الحرس القومي، ثم صعد الشيخ: أحمد القادري داعيًا إلى المواجهة، ودعا الناس إلى الخروج في مسيرة إلى بيت الشيخ: حسن حبنكة زاعمًا أنّ هذا قرار العلماء، وأنه قد أُخْبِرَ الرئيس أمين حافظ بتلك المسيرة، وكان الناس ينظمون صفوفهم، فدهشوا لرؤية دباباتٍ تدك المسجد بقيادة الرائد الدرزي: سليم حاطوم، فسقط قتلى، واقتادوا الناس أذلّاءَ إلى سجن المزة وهم يهتفون للبعث، وجاء أمين الحافظ واللواء أحمد سويدان وألقيا على المعتقلين محاضرات عنِ الاشتراكية والبعث، ثمّ عُرضوا بعدئذٍ على المحكمة، فصدرت أحكام إعدام بحقهم، منع الحافظ تنفيذها.

كان لوفاة مصطفى السباعي 1964م أثر في خلو الساحة منَ الكبار، فهو المراقب العام لحركة الإخوان، وممَّن نعاه الدكتور الحقوقي العلوي محمد الفاضل الذي كان مستشارًا للأسد فيما بعد، وقدِ اغتيل غيلة.[44] وأراد صلاح جديد أن ينتقم منَ البعثيين لقتلهم أخاه،

ونجح في تحطيم الحزب من داخله، فاستغل هو والأسد الهوة بين الحزبيين، وانتزعا السلطة مِن أمينه عفلق ووضعاها في يد القيادة القطرية -أي: بيدهما، وغدا الرئيس القطري هو: رئيس الدولة السياسي والعسكري وقائد المجتمع بعد مؤتمر 1965م، وكان أمين الحافظ داخليًّا لا يملك من أمره شيئًا، وشعر ساعتئذٍ أن الحزب سُرِقَ لمصلحة القيادة القطرية، فاصطف مع الحزبيّين القدامى ضد اللجنة العسكرية؛ ليصبح خصمًا لصلاح جديد والأسد، ودعا القيادة القومية لاجتماع طارئ لحل القيادة القطرية، فعيّنوا على الورق قيادة جديدة (البيطار رئيسًا للوزارة، وأمين الحافظ رئيسًا لمجلس رئاسي، ومحمد عمران المنفي في مدريد للدفاع)، وهنا أصبح الطرفان في حربٍ، فحصل انقلاب 1966م، وسُجِن أمين الحافظ ومحمد عمران وآخرون في المزة، وهربَ عفلق إلى لبنان فالعراق، ولم ير وطنه مرة أخرى.[45]

تخلص الأسد من أعدائه النصيرية، فقتل رئيسه محمد عمران، ومات صلاح جديد مسجونًا؛ وذهبت أسرارهما معهما إلى القبر. ويُلاحَظ أنه منذ دخول الأسد المدرسة

الحربية إلى أن أصبح في أعلى المراتب كان يُعتنَى به، ويترفع من رتبة إلى أعلى في زمن يسير، وكان يملك مواهب جيدة، لكن يبدو أنه كان يُجهَّز لتسلّم السلطة، ولا بد منَ التنبيه على زيارتين قام بهما إلى بريطانيا من قبل، ومن بعد تصفية الأسد لخصومه من دروز وناصريين وانفصاليين، وبعثيين من غير طائفته، فلم يبق في الجيش إلا كل انتهازي ذليل ترتعد فرائصه خوفًا من أصغر جندي نصيري، كما استغل المدارس لنشر الفكر العلماني الإلحادي.[46]

ثم جاء الحدث الجلل عندما نُشِرت مقالة تدعو إلى الإلحاد في مجلة الشعب الصادرة عنِ القوات المسلحة في 25/ 4/ 1967 بقلم رئيس تحريرها الضابط إبراهيم خلاص؛ إذ وصفت المقالة (الله) بأنه دمية محنّطة في متاحف التاريخ، وأنه يجب وضع قيم جديدة تناسب الإنسان الثائر لا الساجد. تداعى الناس بعدئذ دفاعًا عن عقيدة الأمة، فردوا على المقال في خطب الجمعة، وسُيِّرت مظاهرات إلى بيت الشيخ حسن حبنكة تصدع بسقوط الحزب، وبدأ الشيخ يطالب بتهدئة الجموع، لكن السلطة تحت جنح الليل اعتقلتِ الشيخ في سجن مزة، ووجهت له تهمًا بتقويض الأمن، واحتّلت معهده، وسرّحت بعض أتباعه من وظائفهم، ولما زادتِ الاحتجاجات تبرأتِ الدولة من كاتب المقال، ووصفته بأنه فتّان أراد هدم الدولة.[47]

وفي سياق آخر أعلنت مصر هجوم «إسرائيل» على الجمهورية العربية المتحدة في الساعة العاشرة إلا عشر دقائق، فأعلن مذياع دمشق العدوان، مطالبًا الشعب بمسح «إسرائيل» منَ الوجود، وتعهد نور الدين الأتاسي بذلك، ظنًّا منه أنّ الظاهرة الصوتية تكفي لاستسلامها، وبدأتِ الإذاعة تتحدث عن خسائر كبيرة في صفوف العدو، أمّا على الواقع فقد سحقت «إسرائيل» الطائرات في مرابضها، واحتلّتِ الضّفة وغزّة وسيناء، فجاء دور الأسد، وكان وزيرًا للدفاع، وصاحب السلطة الفعلية؛ ليسلّم القنيطرة بدون حرب، فأعلن سقوطها ببلاغ رقم 66، قبل أن تسقط بواحد وعشرين ساعة، وأعلنوا انسحابًا كيفيًّا، لتُحوِّله «إسرائيل» إلى هزيمة كبيرة، إذ خلال يومين من 8 إلى 10 حزيران هرب الجيش هروبًا مهينًا، وكان قادته متنكرين مختبئين،[48] ثمّ جعل قادة الجيش الهزيمة انتصارًا؛ لأن غاية «إسرائيل» كانت إسقاط الحكم التقدمي، فلمّا لم تسقطه هُزِمت! فالأرض تُعوَّض، أمّا الحزب فلا عوض له! وعمومًا بدأ الأسد يمسح آثار جريمة تسليم الجولان؛ إذ أقصى ثلاثة ضباط محسوبين عليه، وهم: أحمد سويداني رئيس الأركان، وأحمد المير آمر الجبهة، وعزت جديد قائد اللواء سبعين في القنيطرة، كما بدأ يضيّق على أنصار جديد،

ويحلّ مواقعهم، وفي عام 1970م اعتقل الأسد قادة الحزب البارزين، منهم صلاح جديد ونور الدين الأتاسي رئيس الجمهورية، وهرب كثيرون إلى لبنان، وعيّن اثنين من أهل السنة، وهما: اللواء ناجي جميل قائدًا للقوى الجوية، ومصطفى طلاس وزيرًا للدفاع، من غير صلاحيات؛ ليخدع المسلمين أنه لا يحتكر السلطة[49] كما أنه منع الفدائيين من مهاجمة «إسرائيل» منَ الأراضي السورية؛ فضمن لـ«إسرائيل» أمنها حتى سقوط ابنه 2024، وبعد أن قضى على خصومه غدا الحكم علويًّا أسديًّا.

كان البعثيون السُّنّة يروّجون لانتخاب حافظ الأسد، وكان الخطر الحقيقي عليه منَ العلوية أنفسهم، فاعتقل كثيرًا منهم، واغتيل اللواء محمد عمران... واعتمد على عشيرته كي يحمي نظامه، وفي 12 آذار 1971م فاز بالسلطة لسبع سنوات، وهذ أمر سيؤرّقه؛ إذ كيف لنصيري أن يحكم بلدًا سنّيًّا؛ فأوعز للنصيريّين أن يلجؤوا إلى الباطنية، فيعلنوا إسلامهم على الملأ، فتولى ذلك الشيخ عبد الرحمن الخير؛ إذ عقد مؤتمرًا عام 1972م لتقرير إسلام الطائفة، وتأكيد حرصهم على البلد، وكي ينثر الرماد في العيون شكل حافظ الأسد الجبهة التقدمية التي ضمت أحزابًا علمانية واشتراكية كانت ديكورًا شكليًّا لم يسمح لها بأي نشاط إلا على الورق، على نحو يخدم البعث وأمينه العام، وأراد بذلك أن يبعد الإسلاميين، وأي حزب يتعاطف معهم، وجعل في كل محافظة ثلاثة شخصيات لها الكلمة العليا: المحافظ، وأمين فرع الحزب، ومدير الأمن السياسي وهو الحاكم الفعلي، وأنشأ الإدارة المحلية ليسمح للناس بالمشاركة في تأدية الخدمات للشعب لتجميل وجه السلطة القبيح، وكانت مهمتها مراقبة الشعب ودفعه نحو الولاءات،[50] وبعد نشر دستور سوريا الجديد عام 1973م ثارتِ احتجاجات شعبية سُنّية بسبب حذف فقرة اشتراط أن يكون رئيس الدولة مسلمًا من الدستور، فأمر حافظ الأسد مجلس الشعب بإعادتها. وأوعز إلى صديقه موسى الصدر بإصدار فتوى أنّ العلويين طائفة منَ المسلمين الشيعة؛ فأُزيل ذلك العائق.

كانتِ الجماعة الإسلامية آنذاك مشغولة بخلافاتها التي بلغت ذروتها عام 1970م حيث انشقت إلى جماعة سياسية تنبذ العنف برئاسة عصام العطار في دمشق، وأخرى عسكرية بزعامة أبي غدة في حلب، فزاد الشرخ،[51] ومنَ المحاولات اجتماع بين جمعيات العلماء في المدن وممثّل السلطة غازي كنعان، حيث قدموا طلباتهم ليكون الإسلام هو مصدر التشريع ودين الدولة، ورُفِعت مذكرة إلى رئيس الجمهورية، ثم أصدر سعيد حوى بيانًا بأسماء علماء سوريا طالب بتغيير الدستور، فسخّرت السلطة مجموعة رخيصة من

علمائها، فأصدروا بيانًا يقرون فيه الدستور، ويجوبون سوريا للتوقيع عليه، وهنا قامتِ السلطة باعتقال الشباب المسلم، فغصّتِ السجون بهم، وصودرت ممتلكاتهم، ولم يبق خيار أمام الدعاة إلا السجن أو الصمت، ثم جاءت حرب تشرين لتعزّز موقف الأسد، فأحكم قبضته على البلد، وغدا أسطورة، فقد رأى أن عملية السلام هي نتيجة للحرب وليست بديلاً عنها، فهي تحريكية وليست تحريرية، لقدِ انتصرنا ظاهرًا ولكن «إسرائيل» فرضت علينا شروطها المذلة، كالامتناع عن أي عمليات عسكرية ضد العدو، ووجود قوات للأمم المتحدة ضمن الأراضي السورية لمراقبة فكّ الارتباط، وقبل الأسد بوجود منطقة معزولة السلاح عمقها 15 كم، يحرم على العسكريين دخول المنطقة السورية، كما أن المدني يجب عليه عند زيارة القنيطرة أن يحصل على موافقة أمنية،[52] ومنع أي عمل فدائي فلسطيني منَ الأرض السورية، وبعد هدوء لشهور اشتعلتِ الجبهة الداخلية من جديد بعد التدخل السوري في الصراع اللبناني عام 1976م؛ بغية كسر المقاومة الفلسطينية السُّنية، وتأسيس محور جديد أقلَّوي مع الموارنة المسيحيين للسيطرة على المنطقة تحت شعار: الدين لله والوطن للجميع.[53]

ثمَّ تفرغ الأسد لتفريغ الجيش من أي قوة سنّيّة، وجعل الجهات الأمنية تنتهي خيوطها الهرمية بقيادات نُصيرية، وكل كلام سياسي يُعَدّ مسًّا بأمن الدولة، وكل مسلم مستقيم يُعَدّ متّهمًا فيعتقل بلا محاكمة، وبعد سيطرتهم على الجيش تفرّغوا للسيطرة على التعليم، فلا يعين مَن له صلة بالإسلاميين، ومن شكّوا فيه نقلوه، ثم سرحوه إن تخوفوا من نشاطاته، وكان السُّنّي يرفع تقريرًا بالسُّنّي، ثم جاء قرار عام 1976م بتحويل 600 مدرس منَ الاختصاصات العلمية والشرعية ليعملوا في البلديات والوزارات الأخرى.

استشعر بعض الإسلاميين الخطر؛ فحافظ الأسد ماض في تدمير الإسلام، ولم يكن الإسلاميون سواء؛ إذ صدع بالحق مروان حديد، وسكتَ غيره منزويًا في مسجده، وبدأ محاولاً رأب الصدع الذي حصل بين شطري الإخوان: عبد الفتاح والعطار، وعندما أخفق مروان في الإصلاح انصرف لإحياء فكرة الجهاد في صفوف جماعته التي سُمِّيتِ الطليعة المقاتلة، وممَّا قاله: «لئن أخرجني الإخوان منَ الباب؛ فسأدخل منَ النافذة، وسأجرّهم إلى الجهاد جرًّا». وقد بدأت محنته عندما خذله الإخوان وغير الإخوان،[54] ثمَّ انطلق إلى العاصمة دمشق؛ لمواجهة النظام في عقر داره، فاعتُقل غدرًا بوشاية عام 1975م، وسجن ليموت تحت التعذيب شهيدًا عام 1976م، فأقسم أتباعه على الثأر له، ونفذوا عدة اغتيالات، منها ثلاثة استهدفت الأسد ذاته، لكنه نجا منها، ونجحوا في قتل

غيره، ولعل ذلك كان خطأً؛ فإن لم يُستهدَف رأس النظام فلن يسقط؛ بل يفتح عيونه، ويزداد شراهة للدماء.[55]

ثم وقع الحدث الأكثر تأثيرًا في تاريخ سوريا، وهو حادثة المدفعية في 16 حزيران عام 1979م، حيث خطّط لها النقيب البعثي إبراهيم يوسف الذي جمع طلاب كلية المدفعية بحلب منَ النّصيرية وقتلهم. هذه الحادثة شجّعت على الاستقطاب الطائفي، وقد أمرتِ السلطة شخصيات دينية بقيادة مسيرات عفوية! في كبرى المدن منديين بالجريمة، وبدأت حملة دموية فورية في طول البلاد وعرضها لاستئصال الإخوان؛ إذِ اعترف النظام صراحة أول مرة بوجود معارضة مسلحة داخليّة، حاول الإخوان جَرَّ الجيش إلى القتال تفاؤلاً بانقلاب عناصر السُّنّة فيه على قادتهمُ النصيرية، لكن النظام زَجَّ بوحدات خاصة ولاؤها له (الصراع على السلطة في سوريا)، وحاول أن يبحث عن سبب آخر للاضطرابات فوجه النظر إلى محاربة الفساد، فوضع عبد الرؤوف الكسم –وهو ابن رجل ديني سنّي مشهور– على رئاسة الوزراء للنهوض بالواقع الاقتصادي من خلال زيادة الرواتب ومحاربة الفساد، فلم تظهر ثمارُ ذلك، فترجّح للنظام الطائفي أنه لن يسيطر على البلاد إلّا بالحديد والنار.

حَمَّلَ النظامُ الإخوانَ حادثةَ المدفعية مع أنهم أنكروها،[56] وصدر منهم ما يوحي بحقّهم في الدفاع عنِ النفس، فبدأ بطشه بجسر الشغور؛ لتكون عبرة، ثمّ توجّهتِ القوّات الخاصة بعددها وعتادها إلى حلب مصحوبةً بالحوّامات القتالية؛ فاعتقلت أكثر من 8000 آلاف، وضمّت إلى جانب الجيش المنظمات الشّعبيّة من عمّال وفلاحين وحرفيّين وشبيبة وبعثيّين.

وفي 9 نيسان صدر مرسوم بحل النقابات كافّة الّتي أُسِّست في أواخر عهد الانتداب 11 حزيران 1946م، وقد أدّت دورًا في قيادة الاحتجاجات وتنظيمها.[57] وفي 5–12/ 4/ 1980م حصلت مجزرة حماة الأولى؛ فأُعدِم العشرات من نُخَب المدينة بعد محاصرتها، وقُطِعت الخدمات عنها. وفي 14–15/ 5/ 1980م هاجم النظام جبل الزاوية بإدلب؛ فقتل العشرات وأتلَف المحاصيل.

وفي 21/ 5/ 1980م ارتكب مجزرة حماة الثانية، ومع ذلك فقد كانت شوكة الإخوان قوية وتعاطف معهمُ الشعب؛ وقدِ انعكس ذلك في تصريحات حافظ الأسد في 21 مارس 1980م عندما برَّأ أكثر الإخوان من أعمال العنف، وأنه ضد القتلة منهم فقط، وهو يشجع أي عمل يخدم الإسلام، ويقبل ما يُقترح عليه في سبيل ذلك، وصبغ خطابه بصبغة إسلاميّة ظاهرة؛ وهو ما يعكس حالة الخوف والإرباك بعد أن شَلَّ الإضراب معظم المدن سوى

دمشق حيث أرسل تجارها برقية مؤازرة ردًّا للجميل؛ إذ شكّلوا برجوازية جديدة تحت ظل البعث بالتحالف مع قادة الأمن، ومع ذلك فقد وقعوا تحت رحمة النظام وابتزازه كلما احتاج للمال أو أراد الهروب من مشكلاته الاقتصادية.

وفي 26 حزيران 1980م نجا الأسد من عملية اغتيال أمام قصره، فثارت ثائرةُ النّصيرية، وهدّد رفعت الأسد، الذي لا يؤمن بأي حَلٍّ، بحرق دمشق، لكنه نفذ وعيده بمجزرة دموية بسجناء تدمر قادها صهره: معين ناصيف، فقتل جميع مَن فيه منَ الإخوان، ومنَ المتعاطفين معهم والمشتبه بهم، وقُدِّر عددهم بـ550. وقدِ اعترف بها ثلاثة ممَّن شارك فيها بعد أن قُبِض عليهم في الأردن؛ لتنفيذ مهمّة اغتيال رئيس وزرائها مضر بدران.[58]

وفي تموز عام 1980م أقرّ قانون 49 المتضمن إعدام كل منتسب للإخوان، وبعد شهر ارتكبت قوات النظام «مجزرة المشارقة» بحلب، عندما أعدمت رجال الحي ميدانيًّا، كما قام النظام بسلسلة اغتيالات خارجية منها: اغتيال بيان الطنطاوي زوجة عصام العطار في ألمانيا، كما نفذت قوات النظام عقابًا جماعيا في مدينة حماة في 24 نيسان سنة 1981م، فلم يتركوا رجلاً واحدًا في حي المشرفية، إذ كانت أكوام الجثث الممثل بها في كل مكان.[59]

وفي 20/ 9/ 1981م دفعت السلطة إلى شوارع العاصمة بمراهقين، ومراهقات بحماية سرايا الدفاع؛ لِنَزع حجاب النساء مع سِباب وكفر وقتل. ثم اتجهت جهود النّصيرية للانتقام من حماة؛ فأصبح اللواء رفعت الأسد آمرًا عُرفيًّا مطلقًا، فأعلنها منطقة عمليات، وأَذِن لسرايا الدفاع بالقتل العشوائي، ومصادرة أموال الناس، واحتجاز ذوي المطلوبين، ثم باشر الإشراف على إبادة المدينة، ومن مقولاته: «إنها حفرة، وسوف نردمها». فكان الانتقام على طريقة الوأد الجماعي، بعد أن حوصرتِ المدينة، وقُصِفت بالآلات الثقيلة،[60] إلى أن جاء شباط 1982م فسُجِّلت أكبر مجازر العصر؛ إذ هُدِمت المدينة، ونُهِبت، وأُبِيد أهلها بعد شهر من صمودها.[61] ووصف تلك المجازر لا يتّسع لها المقام، وهو من جانبٍ آخرَ أكبر دليل على جُبْنِ الأسد، وهو استخدامه للعنف دون سبب ظاهر.[62]

وكما تخلص الأسد منَ الإخوان المسلمين تخلَّص من كل كفاءات أهل السُّنة تحت ذريعة الإخوان، فغدت سوريا خاليةً منَ الكفاءات السنّيّة، إلّا من تخندق في صف النظام، وورث بشار السلطة عن أبيه الذي مات في عام 2000م، وأراد أن يأخذ سوريا نحو علمانيةٍ سافرةٍ، فضيَّق على الخطاب الديني ومؤسساته إلى أن قامت ثورة 2011م؛ فوجد نفسه مضطرًا للرجوع إلى حضن إيران، وغدا رهينةً في يدها فساعدته، بالتعاون مع روسيا،

في حماية نظامه، وأطلقت يدَ المدِّ الشيعي؛ فشيَّدت أكثر من 500 حوزة زينبية في مناطق سيطرتها. وبتاريخ 8/ 12/ 2024م انهارت قوات النظام وهرب الأسد إلى موسكو، وتقوّض المشروع الإيراني في سوريا.

المطلب الثّالث: صلة الجماعات الدّينيّة بالسّلطة:

كانتِ المشيخة في الشّام حِكْرًا على أُسَر علميّة بعينها أكثر من قرنين، وقد حظيت بدعم العثمانيين؛ فالولد يرث والده بمؤهّلاته، ثمّ بدأت تنقطع تلك السلاسل العلميّة بعد شيوع المدارس غير الدّينيّة الّتي أقامتها فرنسا، فلمّا شَغَرَ منصب التحديث من «آل الكزبري» تولاه سِبْطُ العائلة الشيخ: بدر الدين الحسني مغربي الأصل، دمشقي الإقامة، تتلمذ له: علي الدقر وهاشم الخطيب، وأسّسا «جمعيةَ الغرّاء» التي تُعنَى بتعليم أولاد الفقراء والأرياف،[63] ثم فارق الشيخ هشامُ الدقرَ بسبب طريقته التيجانية؛ ليؤسّس مدرسة «التهذيب والتعليم»، وكانا -أعني الدقر هاشم- يجلبان التلاميذ لمجلس شيخهم، ومِن أنبغ هؤلاء:

أولاً: حسن حبنكة (ت. 1978م):

أسّس «معهد التَّوجيه الإسلامي» عام (1946م) بجامع «منجك»، وهو مِن أكثر المعاهد شهرةً؛ لمكانة مؤسسه، ولشهرة مَن تخرَّج منه، كمصطفى الخنِّ (ت. 2008م)، وعبد الرحمن ابن المؤسس (ت. 2004م)، ومحمَّد سعيد رمضان البوطي (ت. 2013م)، والقارئَيْن حسين خطّاب (ت. 1988م)، وكُرِيِّم الرّاجح، ونتيجة مواقف الشيخ حسن المعارضة لسلطة البعث سُجِنَ مدةً قصيرةً، وأُغلِقَ معهده سنة (1967م).[64]

بعد وفاة مؤسسه لم يلتزم معظم تلامذته بموقفه مِنَ الآخر؛ فالبوطي اقترب منَ النِّظام ولاسيما بعد وفاة والده ملا رمضان (ت. 1990م)، ومع قيام ثورة (2011م) استغلَّتِ الأجهزة الأمنيَّة موقفه السَّلبيِّ مِنَ الإخوان والسَّلفيَّة؛ لتُظهِرَ له أنهما قادة المظاهرات بدعم مِن قوى خارجيّة غربيّة ويهوديّة تستهدف سوريا المسلمة وجيشها المقاوم؛ ليقع في فَخِّ نظريّة المؤامرة، وعَزَّزت عنده ذلك رؤيةٌ مناميّة لسحابة فوق الشّام فسَّرها وفق تلك النَّظريّة.[65] كما أدّت ثُلّةٌ من أساتذة كلية الشريعة دورًا في التَّغرير به؛ ليستمرَّ في دعم النظام ومعاداةِ الثَّورة الشعبيّة، واستمرَّ على موقفه ذلك حتّى اغتاله النِّظام في جامع الإيمان؛ بتفجير تمثيليٍّ وهو يُلقي درسه الأسبوعي؛ لاتِّهام المعارضة، وكسبًا لتأييد النِّظام.

ولمصطفى ديب البغا موقف مماثل؛ إذ بَدا صامتًا حتى جاءت زيارات بشار الأسد

له، والصَّلاة في مسجده، فشكّلت نقطة تحوّل كبرى، تمثَّلت في حَدَثَين بارزين: أوَّلهما: خطبة عيد الأضحى في جامع منجك في (17/ 11/ 2010م)[66] بحضور بشار الأسد؛ حيث وصف انقلاب حافظ الأسد واستيلاءه على السُّلطة بأنَّه «حركة تصحيحيَّة مجيدة، أعادت للأمّة كرامتها» وأنَّ «السَّيِّد الرئيس بشّار الأسد إمامٌ عادلٌ، ورجلُ العزّةِ والكرامةِ قَرَنَ القول بالفعل؛ فواصلت سوريا بقيادته الحكيمة والشُّجاعة التَّصدِّي لكلِّ مَن أراد بالأمّة سوءًا». غيرَ أنَّ الحدث الأكثر غَرابةً هو ما حمله مقطع فيديو عام (2019م) بعد سنوات من حرب الإبادة يتحدَّث فيه مِن ماليزيا مُعَدِّدًا مناقبَ بشار الأسد وسجاياه.[67]

ثانيًا: عبد الكريم الرفاعي (1901-1973م):

اتَّخذ «جامع زيد» مركزًا لنشاطه الدَّعويِّ، تَساهَل النِّظام مع «جماعة زيدٍ» في الأحداث؛ فلم يستأصل كوادرها، على الرُّغم من تأييد بعض أفرادها للإخوان وقتالهم معهم، وقد سمح لهم -ومنهمُ ابنا الشيخ: أسامة وسارية- بمغادرة البلد، وقد فُسِّر ذلك بصلتها العميقة بتجّار دمشق الذين كان لهم دور كبير في منع سقوط النظام في أحداث (1979-1982) إلى أن سُمِح لهما -بعد وساطة بعض التجار ومشايخ النظام- بالعودة في منتصف التِّسعينيات كـتكتيك من حافظ الأسد؛ لاستقطاب الدَّعم الشعبي لرئاسة ابنه في المستقبل، فعادتِ الجماعة إلى نشاطها مِن جديد، وكسبت أنصارًا. وحظي الشيخ أسامة بزيارة من بشار الأسد في بيته عام (2002م)، ولم يحصل مثلها لحليفي النِّظام التقليديين: كفتارو والبوطي،[68] ولعله وجد فيهما شخصين قد أَدَّيا غرضهما، ولم يعد لهما أي ثقل في سوريا الجديدة، وعلى إثرها تمكنتِ الجماعة مِن تأسيس بعضِ المشروعات الخيرية بشقيها الإغاثي والطبي، والثانوية الشرعية، والقناة الفضائية التي أُغلقت بعد وقتٍ قصيرٍ مِن افتتاحها.[69]

كانت ثورة (2011م) حَدَثًا فارقًا في تاريخ «جماعة زيد»؛ إذ انحاز أبرز قياداتها للثورة الشعبيّة منذ أيّامها الأولى؛ فأعلن أسامة الرفاعي موقفًا بَيِّنًا، أعقبه حادثة اعتداء الشّبيحة- وهو مصطلح يُطلق على مؤيدي الأسد- عليه عام (2011م) في شهر رمضان؛ فاضطُرّ مع بعض كوادرها إلى الخروج، فانقسمتِ الجماعة بين إستنبول ودمشق، وبسقوط النظام عاد أسامة الرفاعي؛ لِيُوَحِّدَ الجماعة، ويُعيد تأهيلها.

ثالثًا: صالح الفرفور:

أسس «جمعية الفتح الإسلاميِّ» عام (1956م)، وتمخَّض عنها: «معهد الفتح

الإسلاميِّ»، ومَنْ خَلَفه فيه كانت أحلامُه تتجاوز فكرةَ معهد دعوي، فأرادوا تحقيقها عن طريق موالاة النِّظام والسَّير في ركابه؛ مستفيدين من تراجع دور «مجمَّع أبي النُّور» بوفاة مؤسِّسه الشيخ: أحمد كفتارو عام (2004م)، فسارعوا إلى إعلان الولاء لملء الفراغ؛ فترشَّح شيخان من شيوخه أوَّل مرَّة في تاريخ المعهد، وهما: بسام ضفدع، ومحمود دحلا للانتخابات البرلمانيَّة في عام (2007م)،[70] فضلاً عن أنَّ ثلاثةً من مدرِّسيه قد شغلوا مناصب دينيَّة سياسيَّة هم: عبد الفتاح البزم مفتيًا لدمشق، وأحمد سامر القبّاني وخضر شحرور؛ إذ تولّيا على التَّرتيب أوقاف دمشق وريفها، وبعد تفجُّر الثَّورة السُّوريّة سنحت فرصة أخرى لأرباب المعهد لتوثيق صلتهم بالنظام؛ فانحازوا إليه انحيازًا مطلقًا؛ ليصبحوا لسانًا من ألسنته على قنواته الرسمية، ينافحون عنه، ويسوِّغون موبقاته كافّة، ولا تزال صورةُ بعض مشايخه حاضرة في أذهان السُّوريين وهم يستلقون على الأَسِرّة، متبرِّعين بدمائهم لجيش النظام، فكافأهمُ الأسد؛ إذ اعترف بشهادة خرِّيجي المعهد رسميًّا في مقابل الاعتراف بكلِّيّة معتمدةً للشِّيعة، وغدا اسمه: «معهد الشَّام العالي» بإشراف الشيخ حسام الدِّين فرفور. ولا بُدَّ مِنَ الإشارة إلى أنَّ أعظم الخدمات التي قَدَّمها المعهد للنِّظام كما يرى قادة الثَّورة كانت في عام (2018م) حين قام بعضُ خرِّيجي المعهد الذين كانوا في صفوف المعارضة وهم: بسام ضفدع، وأنس الطَّويل، ورضوان الكحيل بالاضطلاع بدور كبير في إعادة بعض مناطق الغوطة الشَّرقيّة والجنوبيّة إلى سيطرة النِّظام.[71] وقبل وفاة الشَّيخ صالح بعام حصل فتورٌ في العلاقة بينه وبين ابنه البكر عبد اللَّطيف، وكان فيما يبدو طموحًا للمناصب، فلمَّا لم يُمكَّن من إدارة المعهد أسّس «معهد السَّادات» ووضع برنامجًا للدِّراسات العليا، وانتسب إليه عددٌ كبير مِنَ الطلاب الرّاغبين بمتابعة الدِّراسات العليا، حاول الشيخ الاقتراب مِنَ النِّظام؛ كي يُوسِّع أقسام المعهد؛ ولينتزع اعترافًا رسميًّا بشهاداته، فقام بعدَّة إجراءات منها: تقريره مادَّة تحت مُسمَّى «فكر القائد حافظ الأسد»، كما وظَّف لديه بعض الشَّخصيّات الحزبيّة؛ لتدريس مقرري الثَّقافة والقوميّة، غيرَ أنَّه فجأةً وبقرارٍ غير متوقَّع أُغلِقَ المعهد، وانتهى الحلم.

رابعًا: جماعة كفتارو:

من خارج الدائرة المشيخية الشامية قدِم محمد أمين كفتارو إلى دمشق، وباشر دعوته التي غلَّفها بالتصوف ومخاطبة العوامّ، وفي عام (1936م) أصبح أحمد كفتارو شيخ النَّقشبنديَّة بدمشق خَلَفًا لوالده أمين (ت. 1936م)، وفي عام (1949م) أسس «معهد النَّصر للتّعليم الثَّانوي»، ثمَّ غدا المعهد في عام (1952م) جزءًا من «جمعيَّة الأنصار الخيريَّة»،[72]

ولم يَحْظَ كفتارو لمستواه العلمي بمكانة بين شيوخ دمشق؛ فجاءت شهرته غير المتوقَّعة من دروسه الشَّعبية التي كان يُلقيها بالعامِّيّة على العامّة في حيٍّ يقطنه مهاجرون أكراد، وكذا دعوته إلى الحوار المسيحي الإسلامي، إلى أن جاء عام (1957م) حيث شكَّل نقطةً فارقةً بين الشيخ كفتارو وبين مشايخ الشّام عندما دعم مرشَّحَ «حزب البعث» رياض المالكي ضدَّ مصطفى السِّباعي[73] بُغيةَ تشكيل تحالفٍ يُحقق طموحاته.

وبعد انقلاب «حزب البعث» عام (1963م) وُجِدت حاجةٌ لتعيين شخص بصفة المفتي العام لسوريا، بعد استقالة أبو اليسر عابدين؛ لرفضه إباحة التأميم زمن الوحدة مع مصر، ففاز كفتارو يومئذٍ على منافسه حبنكة بفارق صوتٍ واحدٍ، نتيجةَ تحالفه مع الحكومة التي أَغْرَت بعضَ العلماء فدعموه.

وبعد انقلاب حافظ الأسد عام 1970م وجد كفتارو فيه السند الذي بحث عنه طويلاً، وقيل: ثَمّةَ علاقة جيِّدة كانت تربطهما قبل السُّلطة، وينقل عنه تلميذه الباني: «إمّا أن نكون من مستشاريه المقرَّبين أو سنخسره لصالح أعداء الدّين». وهكذا غدا كفتارو «مفتي البعث» الذي وَطَّد حكم الأسد، فكافأه بإطلاق يده بتوسيع نشاطه، فبدأ ببناء «مجمع أبي النُّور» على أنقاض الجامع الذي افتتحه عام (1974م)، وفيه مقرُّ «جمعية الأنصار» ومسجد يتكوَّن من سبعة طوابق، ضم عددًا من كليات العلوم الإسلامية كالدَّعوة، وأصول الدِّين، والشَّريعة والقانون، والأوزاعي، وكلُّها تمنح شهادات جامعيَّة وعُليا.

وبعد وفاة حافظ الأسد (2000م) اقتنع بصحّة الطَّريق الذي سلكه بمهادنة النِّظام عندما وجد الجماعات التي نعتته بالخيانة؛ لقربه منَ الأسد أصبحوا يتزلَّفون لابنه، ويسعون جهدهم لحماية جمعياتهم.[74] واستمرَّ في منصبه ذلك نحو أربعين سنة حتّى وافاه الأجل عام (2003م). ولم يتغير نهجُ الجماعة مع الأسد الابن، ومع ذلك فقد سَلَبَ وزير الأوقاف: محمد عبد الستار السيد منها كثيرًا مِن امتيازاتها، ثم حجَّمها.

خامسًا: القُبيسيَّات:

بقي أن نشير، وبإيجاز شديد، إلى الدعوة النسائية الدمشقية، التي يُمثِّل معظمها: الكفتاريات والقُبيسيات ولقربهما في النشأة والمنهج سنقتصر على القُبيسيات؛ لأنهنَّ أوسع انتشارًا، وأدقُّ تنظيمًا، وأكثر سرّيّةً، وأعمقُ صلةً بالسلطة، وهي جماعة نسائية دعوية نشأت في دمشق؛ تستهدف الطبقة الثرية وصُويحبات الكفاءات، ثم انتشرت إلى دول أخرى. تعود التسمية إلى منيرة القُبيسي التي تخرجت في كليتي العلوم والشريعة،

وكانت مريدةً للشيخ أحمد كفتارو، ثم انفصلت عنه مع بقاء ولائها له، وهي شخصيةٌ كارزميةٌ ظهر ذكاؤها في تأسيس البناء الهرمي للجماعة واكتماله في حياتها، وفي الضبط الإداري، وحسن استثمار الطاقات،[75] وكذا قدرتها الكبيرة في احتواء الاتجاهات الدينية كافّة؛ مع ما بين بعضها من تنافرٍ مستورٍ وسافرٍ؛ وقد أفادت من عدة مدارس، أهمها: (أحمد كفتارو، وكلية الشريعة، وجماعة زيد)، ووَلَجَتْ بيوت الشخصيات الدينية كافّةً، وهذا ما أكَّده الشيخ: عبد الله دك الباب (مدير معهد الأمينية) في كتابه ازدواجية المعايير؛ ولهذا فإن قرارات المشايخ غالبًا تقع تحت تأثير زوجاتهم وتوجيههن.

وللجماعة هيكل هرمي فـ«الحَجَّات» تدير الجماعة، وتضع خططها وتشرف على تنفيذها؛ ثم تأتي «الآنسات»؛ وهنَّ المنفذات لبرامج الجماعة التعليمية والدعوية والمسؤولات عن الوصول إلى الشرائح المستهدفة؛ ثم «المريدات» وهنَّ المستهدفات بالدعوة، والقرب من الآنسات بحسب ولاء المريدة، واجتهادها، وقدمها، وصفاتها المؤثرة.[76]

سنقتصر على الجانب السياسي. مرّت الجماعة بمراحل، منها:

المرحلة الأولى: الدعوة البيتية (السرّيّة)، الممتدة من سبعينيات القرن الماضي حتى عام 2006م، بإذن النظام؛ لملء الفراغ الذي أحدثه اجتثاث الإخوان أولاً، ولتحسين صورته ثانيًا، وهو مطمئنّ إلى ولائهن، فهنَّ امتداد لـجماعة كفتارو وعموم مشيخة دمشق، وهذه الدعوة السرية مكّنتها من اختراق الأسر والوقوف على اتجاهاتها وعلاقاتها وأحوالها، ولم تكن صلتهنَّ بالسلطة ظاهرةً، وكانت ترعاهنَّ فئتان: تجار دمشق ماديًّا، وتزكية رجال الدين لهنَّ معنويًّا.

المرحلة الثانية: الخروج من البيت إلى المسجد (2006م – 2012م)[77] بدعم من وزير الأوقاف والبوطي بوصفهن وطنيات مخلصات لا صلة لهنَّ بالسياسة، وهنا ظهر النظام بصورة الراعي للإسلام والوصي عليه.

المرحلة الثالثة: من المسجد إلى الوزارة فالقصر (2014م – 2015م)، فمع بلوغ النظام ذروة تقهقره وَجَدَ نفسه بحاجةٍ إلى اتجاه ديني يُغطي على مذابحه الجماعية، وهنا وجدت الجماعةُ نفسها جاهزةً للقيام بذلك الدور الوظيفي مقابل الحفاظ على مكتسباتها الدعوية، فتصدَّرت القبيسيات المشهدَ، وعُينت الآنسة سلمى عياش مكافأة لهن على اصطفافهن مع النظام- في منصب معاون وزير الأوقاف، هذه الوزارة التي تحولت بعد

الثورة إلى مؤسسة أمنيةٍ خالصةٍ، فوزيرها: محمد عبد الستار السيد عضو مكتب الأمن القومي الذي يُعَدُّ أعلى سلطة مخابراتية في سوريا؛ وهو الذي جعلها رهينةً في يد إيران، كما سعى جاهدًا لتطبيق مخطط نشر التشيّع من خلال: افتتاح مؤسسات علمية شيعية، وحوزات زينبية تعليمية في منطقة السيدة زينب، وبجوار المسجد الأموي بدمشق، وفي حلب المدينة، وتبنى مشروعًا لتدجين الإسلام ومسخه وتقزيمه من خلال تبني خطاب ديني قوامُه :فهمُ الإسلام وفق مرتكزات رأس النظام ورؤيته.[78]

وفي هذه المرحلة الأخيرة: تحولت الجماعة إلى مؤسسةٍ أمنيةٍ ناعمةٍ بقناع ديني تحاول إسباغ شرعية مصطنعة على نظام قاتل، وهكذا فإن تجنب السياسة أوّل الأمر ليس حيادًا أو موقفًا صوابًا، وإنما ممارسة لوظيفة سياسية سلبية بإبعاد الجيل عن التفكير في السلطة والمطالبة بحق المشاركة في الحكم، ثم انهزم هذا الحياد المزعوم لمصلحة ولاءٍ تامٍّ للنظام، وإشادةٍ بجهوده ودوره في رعاية الدين ،والمحافظة على سلامة الوطن، وحفظ وحدته.

خاتمة:

إذا استثنينا الإخوان فإن بين الجماعات الدينية التقليدية قواسم مشتركة، منها: مسالمة النظام ومهادنته، والاصطفاف معه على الرغم مِنَ الخلافات بينها، كما أنها تفتقر إلى مشروع فكري ورؤية سياسية، ومن هنا: لم يجد النظام فيها خطرًا عليه، أو تهديدًا لحاضره ومستقبله؛ إذِ اقتصرت جهودها الدعوية على تعليم طلابها العبادات الشعائرية والمتون التقليدية، وتستند جميعها إلى الفقه التقليدي الذي يرى حرمةَ الخروج على الحاكم، وإن أَكَلَ المالَ وجَلَدَ الظَّهْر، واستولى على السلطة قهرًا، وأن ذنوب الناس هي سبب ظلم الحاكم، وعندما قامت الثورة عام 2011م انحاز أكثرُها للنظام؛ ففقدت شريحةٌ كبيرةٌ مِنَ النّاس ثقتها بالخطاب الديني؛ إذ غدا بُوقًا للسلطة، وأداةَ تخدير وتضليل، فأخذ كثير من الشباب البحث عن مرجعية بديلة، وقد أتاحت له مواقعُ التواصل فرصةً ذهبيةً لتحقيق رغبته، فتأثر بالفكر السّلفي الجهادي الوافد.

ومن نتائج البحث العامة: أنَّ الإسلام السياسي لا يصمد أمام إغراء السلطة، وأنه قدِ انحسر النفوذ الإسلامي عن مؤسسات التعليم والتربية والقضاء في مرحلة الانتداب. وكذا لم يكن للإسلاميين حضورٌ في الجيش؛ بسبب تركيبته الطائفية؛ فمَن يملك الجيشَ يملك السلطة؛ لذلك لم يستفيدوا مِن شعبيتهم، ومع تسلُّم الأسد مقاليد السلطة وَظَّفَ الجماعات الدينية لخدمته، وحَرَّش بينها؛ لتبقى مجزأةً مفرقةً؛ فتسهل السيطرة عليها

وتوجيهها. وينبغي التنبيه على خطورة الطوائف الدينية، ولاسيما الدروز؛ فهم أدّوا دورًا محوريًّا في الانقلابات العسكرية كافّةً. وأخيرًا يُعَدّ حزب البعث حزبًا انقلابيًّا، لا يُؤمن بتحقيق أهدافه تدريجيًّا، ويرى أن الإيمان بالإصلاح الجزئي قد يقوّض غاياته.

الهوامش والمراجع:

1. منير الغضبان، سورية في قرنٍ، د. ط، د. م، ص16، 18.
2. يوهانس راينسر، الحركات الإسلامية في سورية من الأربعينيات وحتى نهاية عهد الشيشكلي، ترجمة: محمد إبراهيم الأتاسي، رياض الريس للكتاب والنشر، ط1: 2005، ص83، 103.
3. الغضبان، سورية في قرن، ص18-22؛ راينسر، الحركات الإسلامية، ص103؛ ياسين الحافظ، الهزيمة والأيديولوجية المهزومة، د. ط، د.م، ص111.
4. الغضبان، سورية في قرن، ص33-34، 43-44، 48، 50؛ راينسر، الحركات الإسلامية ص25-26.
5. علي الطنطاوي، ذكريات علي الطنطاوي، دار المنارة، ط5: 2006، 282/1.
6. الغضبان، سورية في قرن، ص64؛ راينسر، الحركات الإسلامية، ص27، 65.
7. الغضبان، سورية في قرن، ص72، 74-75، 78-79؛ راينسر، الحركات الإسلامية ص29، 63.
8. راينسر، الحركات الإسلامية، ص119-121.
9. عدنان زرزور، مصطفى السباعي الداعية المجدّد، دار القلم ، ط1: 2000م، ص141؛ راينسر، الحركات الإسلامية، ص122-123.
10. بيريه توماس، الدين والدولة في سورية، علماء السنة من الانقلاب إلى الثورة، ترجمة: حازم نهار، الإمارات، مركز المسبار للدراسات والنشر، ط1: 2013م، ص215؛ الشيخ محمد كامل القصاب الحمصي (ت. 1954م)
https://syrianoor.net/article/202.
(تاريخ الوصول: 15 يناير 2025).
11. راينسر، الحركات الإسلامية، ص72.
12. الغضبان، سورية في قرن، ص89، 90، 92؛ مطيع النونو، تاج الدين الحسني، الشرق الأوسط العدد: 7236، الأحد، 1998/9/20م، (تاريخ الوصول: 20 يناير 2025).
13. الغضبان، سورية في قرن، ص89، 194.
14. راينسر، الحركات الإسلامية، ص51، 63، 205.
15. الغضبان، سورية في قرن، ص98.
16. سهيل العشي، فجر الاستقلال في سوريا، دار النفائس بيروت 1999، ص83-89، 99.
17. الغضبان، سورية في قرن، ص105، 107.
18. الغضبان، سورية في قرن، ص110؛ راينسر، الحركات الإسلامية، ص99، 326.

19. الغضبان، سورية في قرن، ص115-116؛ راينسر، الحركات الإسلامية، ص337.
20. ميشيل سورا، سورية الدولة المتوحشة، ترجمة أمل سارة، مارك بيالو، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1: 2017، ص155.
21. الغضبان، سورية في قرن، ص128-129.
22. باترك سيل، الصراع على سورية، د. ط، د. م، 282-283؛ الغضبان، سورية في قرن، ص132-133.
23. الغضبان، سورية في قرن، ص138-139.
24. سيل، الصراع على سورية، ص369؛ الغضبان، سورية في قرن، ص143، 149.
25. الغضبان، سورية في قرن، ص153.
26. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص160.
27. الغضبان، سورية في قرن، ص160.
28. سيل، الصراع على سورية، ص760-761؛ الغضبان، سورية في قرن، ص174.
29. الغضبان، سورية في قرن، ص175.
30. الغضبان، سورية في قرن، ص184.
31. راينسر، الحركات الإسلامية، ص348.
32. الغضبان، سورية في قرن، ص189.
33. عبد الكريم زهر الدين: مذكراتي عن فترة الانفصال في سورية، دار الاتحاد، 1968م، ص123-124، 194.
34. الغضبان، سورية في قرن، ص206.
35. الغضبان، سورية في قرن، ص239، 240.
36. الغضبان، سورية في قرن، ص250.
37. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص165.
38. الغضبان، سورية في قرن، ص262.
39. الغضبان، سورية في قرن، ص271.
40. نيقولاوس فان دام، الصراع على السلطة في سوريا، مكتبة متبولي، القاهرة، ط1: 1995م، ص51.
41. الغضبان، سورية في قرن، ص290، 293، 316, 322.
42. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص162؛ الغضبان، سورية في قرن، ص325، 327؛
43. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص112؛ الغضبان، سورية في قرن، ص330-331.
44. الغضبان، سورية في قرن، ص339-345.

45. الغضبان، سورية في قرن، ص359، 363.
46. الغضبان، سورية في قرن، ص389، 420.
47. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص113.الغضبان، سورية في قرن، ص422-423؛
48. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص168.الغضبان، سورية في قرن، ص437-438.
49. الغضبان، سورية في قرن، ص254، 440، 449، 454-455.
50. الغضبان، سورية في قرن، ص، 470-471، 477.
51. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص114، 142.
52. الغضبان، سورية في قرن، ص497؛ 480-481.
53. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص115.
54. الغضبان، سورية في قرن، ص526، 531.
55. فان دام، الصراع على السلطة، ص99-100.
56. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص116، 118، 572.
57. راينسر، الحركات الإسلامية، ص74؛ سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص128-129.
58. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص124، 130، 146؛ الغضبان، سورية في قرن، ص583.
59. الغضبان، سورية في قرن، ص591، 610؛ سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص133.
60. الغضبان، سورية في قرن، ص625.
61. الغضبان، سورية في قرن، ص645-646؛ سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص144.
62. سورا، سورية الدولة المتوحشة، ص162.
63. راينسر، الحركات الإسلامية، ص118.
64. البوطي (محمد سعيد رمضان)، شخصيات استوقفتني، دار الفكر، ط1: 2014، ص242-243؛ توماس، الدين والدولة في سوريا، ص74.
65. https://www.youtube.com/watch?v=NJgbb26SPqk (تاريخ الوصول: 15 يناير 2025).
66. https://www.youtube.com/watch?v=WhBKHQiDKwg (تاريخ الوصول: 15 يناير 2025).
67. https://www.youtube.com/watch?v=qzUNTHio0Iw (تاريخ الوصول: 15 يناير 2025).
68. عمر عمادي، علمانيةً تنظيميًا: الحركات الإسلامية الدمشقية والثورة السورية، http://alaalam.org/ar/translations-ar/item/678-712310318 (تاريخ الوصول: 15 يناير 2025).

69. توماس، الدين والدولة في سوريا، ص126.

70. مقابلة مع خرّيج مِنَ المعهد، (بتاريخ: 2020/5/10).

71. شاهدنا وقائع هذه الأحداث، وللوقوف على مزيد من ذلك والتوسع فيه يراجع مقالة: ليلى الرفاعي، النظام السوري حبَا مجمع الفتح الإسلامي بالنفوذ لكن بأيّ ثمن؟
https://carnegie-mec.org/2019/01/02/ar-pub-78051
(تاريخ الوصول: 16 يناير 2025).

72. عمر عمادي، علمانيةً تنظيميًّا: الحركات الإسلامية الدمشقية والثورة السورية،
http://alaalam.org/ar/translations-ar/item/678-712310318
(تاريخ الوصول: 16 يناير 2025).

73. بيريه، الدين والدولة في سورية، ص77.

74. عمادي، علمانيةً تنظيميًا: الحركات الإسلامية الدمشقية والثورة السورية،
http://alaalam.org/ar/translations-ar/item/678-712310318
(تاريخ الوصول: 16 يناير 2025).

75. ثائر الحلاق، القُبيسيات، مجتمع داخل المجتمع، مجلة حرمون، العددان الثالث عشر والرابع عشر، كانون الأول/ ديسمبر 2020، ص109-111.

76. الحلاق، القبيسيات، مجتمع داخل المجتمع، ص111-112.

77. عمادي: علمانيةً تنظيميًّا: الحركات الإسلامية الدمشقية والثورة السورية،
http://alaalam.org/ar/translations-ar/item/678-712310318
(تاريخ الوصول: 17 يناير 2025).

78. الحلاق، القبيسيات، مجتمع داخل المجتمع، ص116-121.